

2013

العلامة محمد المختار السوسي والزاوية البصيرية العلاقة الغائبة أم المغيبة

الجيلالي كريم

باحث في التاريخ، الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين جهة الشاوية ورديغة

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [History Commons](#)

Recommended Citation

"العلامة محمد المختار السوسي والزاوية البصيرية العلاقة الغائبة أم المغيبة", *Dirassat*: Vol. 16 : No. 16 , Article 4.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol16/iss16/4>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

العلامة محمد المختار السوسي والزاوية البصيرية العلاقة الغائبة أم المغيبة

الجيلالي كريم

باحث في التاريخ

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين للشاوية ورديغة

لا شك في أن العلامة محمد المختار السوسي أشهر من أن يُعرَّف، ولا يختلف اثنان في كون هذا الرجل أعطى للمغرب المعاصر بشكل عام، ولسوس بشكل خاص، الكثير مما لا يمكن حصره في مقال أو كتاب أو حتى في عدة مجلدات، ولذلك لم يكن عبثاً أن تتناوله الأقسام بمختلف مشاربها وتوجهاتها تعريفاً واعتراضاً وتكريماً واحتفاءً، وأن تُفرد له العديد من الدوريات والمجلات أعداداً خاصة، وأن تُنظَّم ندوات، وتُلقَى محاضراتٍ للتعريف به وعرض سيرته وإسهاماته المختلفة، ومع كل ذلك لا يزال هذا الرجل الفذ -وهو في رسمه- يسيل الكثير من المداد سيما وأن العديد من مؤلفاته ما زالت مخطوطة ولم تحقق بعد⁽¹⁾، وحتى المطبوع منها صار في حكم النادر لعدم إعادة طبعه.

1. استفهام وتوضيح

لم يكن الاهتمام بالعلامة السوسي ضرباً من العبث، ونحن وإن كنا لا نستغرب لهذا الكم الذي كتب حول هذا الأديب المؤرخ -ولا غرو فهو أشهر من نار على علم- فإننا نستغرب للتجاهل الكبير الذي طبع البحوث والكتابات التي كتبت حوله لمرحلة مهمة من حياته، وللقفز غير المفهوم على فترة من أهم فترات تكوينه المتمثلة في علاقته بزاوية آل البصير الدرقاوية الإبراهيمية ببني عياط بتادلة؛ هذه العلاقة التي تعتبر حلقة أساسية في عقد حياته؛ بل نكاد نجزم أنها الطفرة الأساسية التي أنتجت لنا هذا النابغة، ولولا هذه العلاقة بآل البصير -وتحديداً بالشيخ سيدي إبراهيم البصير الرقيبي مؤسس الزاوية المذكورة- لما عرفنا يوماً رجلاً بهذه المواصفات.

كيف لا؟ ولولا هذه الصلة ما ذهب محمد المختار السوسي إلى فاس ولا إلى الرباط، فهذا الشيخ هو من أوحى إليه بفكرة الذهاب إلى فاس وألح عليه فيها، وهو من كان يتكفل بمؤونته ورعايته طيلة سنوات مقامه بها حتى استوى عوده العلمي، وهو من مهد

(1) رضى الله عبد الوافي، المختار السوسي، دليل مؤلفات ومخطوطات العلامة رضى الله محمد المختار السوسي (بيبلوغرافيا آثاره)، تصفيف وإخراج «كوبي النور»، شارع النور، الرباط، 1426هـ/2005م.

له طريق الذهاب إلى الرباط، وهل يمكن أن نتصور شخصية هذا العالم دون مرحلتي دراسته في هاتين الدينيتين؟ فهو نفسه لا يتصور ذلك؛ بل يقر في غير ما موضع من مؤلفاته أن حياته لم تكن شيئا مذكورا قبل ذلك، وأن هاتين المحطتين هما اللتان شكلتا ميلاده العلمي، فعن فاس يقول: «ليت شعري كيف أكون لو لم أقض في فاس أربع سنوات قَلَبَتْ حياتي وتفكيري ظهرا لبطن، ثم لم أفارقها إلا وأنا مجنون بالمعارف جنون قيس بن الملوح بليلاه، حتى نسيت بها كل شيء»⁽²⁾، ويضيف في موضع آخر: «[...] ثم لما حللت بفاس أتى الوادي فطم على القرى، فبدلت أخلاقا غير التي عهدت من نفسي قبل، وأنا في مراکش وأحواز مراکش، فقد تلقحت في جو فاس بما لو لم ألتقح به لما كانت لي فكرة، ولا تحركت بي همة [...] تكونت لي في فاس فكرة دينية فرقت بها ما بين الخرافات الموهمة، وبين الروحانيات الربانية، كما نبتت مني غيرة وطنية نسيت بها نفسي ومصالح الشخصية [...] فصرت أقرأ [...] ما عرفت به أن الذي كنت أسبح فيه منذ صغري ليس إلا ضحضا كدرا؛ لا يبرد جسدا؛ ولا يفتأ غلة؛ ولا يقضي على لهفة»⁽³⁾. أما عن الرباط فيقول: «[...] ثم أملت بالرباط، حيث احتقبت أيضا علوما وفهوما وأنظارا وبحوثا لم أقع عليها إلا في الرباط وفي مشايخ الرباط»⁽⁴⁾.

فإذا كان محمد المختار السوسي نفسه يقر بكل ذلك، وإذا كانت اليد البيضاء في حصول كل هذه الأمور، ترجع للشيخ إبراهيم البصير - كما سنرى - وإليه يعود الفضل، بعد الله سبحانه وتعالى، في رسم مسار حياة هذا الرجل وتكوينه، فمن الموضوعية التاريخية أن يرد الفضل إلى أهله، وأن تسمى الأمور بمسمياتها تحقيقا للحق وضبطا للتاريخ.

2. صحبة صوفية مع الأب وعلاقة مبكرة مع الابن

ولد الشيخ سيدي إبراهيم البصير الرقبيني بزاوية والده امبارك البصير بالأخصاص بسوس عام 1287هـ/1870م⁽⁵⁾، ولبس خرقة التصوف الدرقاوي على يد الشيخ سيدي

(2) محمد المختار السوسي، سوس العالة، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1380هـ/1960م، ج1، ص 14-15. الكلمة الافتتاحية، ورقة هـ.

(3) محمد المختار السوسي، المعسول، مطبعة النجاح، الدار البيضاء 1380هـ/1960م، ج1، ص 14-15.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص 15.

(5) - للمزيد من الأخبار عن هذا الشيخ وعن أصله ونسبه وطريقته، راجع:

- الجيلالي كريم، زاوية آل البصير بتادلة، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في التاريخ، مرقونة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، 2005م.

- عبد الهادي بصير، زاوية الشيخ سيدي إبراهيم البصير ببني عياط: تاريخ وتعريف، نشر ضمن سلسلة مطبوعات زاوية الشيخ سيدي إبراهيم البصير رقم 5، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، 1430هـ/2009م.

- محمد المختار السوسي، المعسول، م س، ج 12، ص 188-56.

- محمد المصطفى بصير، الاغباط بزاوية سيدي إبراهيم البصير ببني عياط، مخطوط بخزانة زاوية آل البصير ببني عياط بتادلة (مرقون)، دون ترقيم.

الحاج علي بن أحمد الإلغي السوسي والد العلامة محمد المختار السوسي، ومن ثم بدأت العلاقة بين هذا الأخير وبين إبراهيم البصير الذي كان يقدره ويعطف عليه -رغم صغر سنه- باعتباره ابن شيوخه، وزادت العلاقة توطدا بعد وفاة الشيخ الإلغي، لاسيما أن هذا الشيخ كان يقدر إبراهيم البصير وينزله المرتبة العليا بين أصحابه حتى إنه كان يشير باستمرار إلى أنه الوارث لسره من بعده؛ بل إنه عبر عن ذلك بالفعل لما أوصى له بسبخته وعكازته الخاصتين وبكتاب الأمير الذي شلّحه⁽⁶⁾، وهي إشارة واضحة لدى أهل الطريق مفادها الإذن برياسة مشيخة الطريق من بعده، ولا غرو في ذلك فقد «...» كان حاجب الشيخ ويده ومستشاره⁽⁷⁾.

وبعد وفاة الشيخ سيدي علي بن أحمد الإلغي، انقطع الشيخ سيدي إبراهيم البصير عن إلغ لأنه «...» كان لا يريد أن يقع بينه وبين كبار الفقراء الأسود ما يهدد مقامه⁽⁸⁾، وبنى لنفسه زوايا متعددة بكل من الحوز والرحامنة ودكالة والشاوية وتادلة قبل أن يضع عصا الترحال بزوايته الأخيرة ببني عياط⁽⁹⁾؛ لكن انقطاعه عن إلغ لم يكن ليعده عن أبناء شيوخه خاصة محمد المختار السوسي الذي كانت له مكانة خاصة عنده، وغالبا ما كان يبشره بمستقبل مبهج، ويرى فيه نبوءة أخيه محمد بن مبارك البصير⁽¹⁰⁾ الذي لم يكن يتردد في كل لقاء يجمع بينهما في التصريح بأنه كذا وكذا من بين إخوته، وحين كان لمحمد البصير ما كان في أسرته، صاروا ينظرون إليه بتلك النظرة الخاصة⁽¹¹⁾.

(6) وقفنا على هذه الأشياء في زاوية الشيخ سيدي إبراهيم البصير ببني عياط بتادلة. انظر صورة العكاز والكتاب في الملحق رقم 01، أما السبحة فقد أخبرنا أهل الزاوية أن بعض الأيادي امتدت إليها فسرقتها من خزانة الزاوية.

(7) محمد المختار السوسي، المعسول، م س، ج 12، ص 138.

(8) المصدر نفسه، ص 156.

(9) للتعرف على ظروف تأسيس هذه الزوايا وأماكنها، راجع: الجيلالي كريم، زاوية آل البصير بتادلة، م س، ص 82 - 123.

(10) أكد محمد المختار السوسي أن صيت الشيخ سيدي محمد بن مبارك البصير كان ذائعا في عموم الصحراء، وأن «...» حاله في الكشف والنطق بالغيوب عجيب غريب، إرثا عن أهله، يعلن ذلك ويصرح به، ويدل به ولا يخفيه كأهله، واشتهر عند كل الناس بهذه الحال، والله يصدقه في كل ما قال صدقا ثابتا». (محمد المختار السوسي، المعسول، م س، ج 12، ص 101). وأوضح أنه لم يكن يطيق الصمت عن ذلك، وأنه كان يجيب كل عاتب عليه بقوله: «إنني لا أطيق الصمت، ولو صمتت لاحترقت». (المصدر والصفحة نفسهما). راجع تفاصيل حياة هذا الشيخ عند:

- محمد المصطفى بصير، النزر اليسير من مناقب زاوية آل البصير: في الصحراء وسوس وبني عياط بالمغرب، دراسة وتحقيق عبد المغيث بصير، سلسلة مطبوعات زاوية الشيخ سيدي إبراهيم البصير رقم 1، مكتبة الأحباب، دمشق سوريا، 1424هـ/2002م، ص 185 وما بعدها.

(11) محمد المختار السوسي، المعسول، م س، ج 12، ص 156.

وذكر المختار السوسي أنه اتصل بآل البصير وتعرف على شيخهم سيدي إبراهيم المذكور منذ نعومة أظافره وهو ما زال غراً لا يعرف كيف يحترم الكبار، كما أقر أن هذا الشيخ كان يداريه، ويحلم له ويصدره دائماً أمامه، ويؤوّل ما عسى أن يفرط منه من خفة وغضب يقعان في غير موقعهما⁽¹²⁾. وزاد حلم الشيخ على المختار الصبي بعد وفاة والده، خاصة أنه لم يكن قد جاوز ربيع العاشر بعد⁽¹³⁾، فظل يرعاه وظل حبل الوداد بينهما متصلاً، حيث كان المختار السوسي يداوم على زيارة الشيخ إبراهيم البصير في زاويتيّه الرئستين بتادلة سواء الأولى⁽¹⁴⁾ أم الثانية⁽¹⁵⁾.

لما أتم محمد المختار السوسي تعليمه الأولي بسوس ونهل من علومها ومدارسها العتيقة، يمم وجهه صوب مراکش عام 1338هـ/1918م لاستكمال تعليمه وتنمية معارفه، فتوطدت العلاقة أكثر بينه وبين الشيخ إبراهيم البصير، وأصبح يتردد باستمرار على زاويته؛ بل كان يقيم بها بالأيام والشهور، ونظراً للمحبة الخاصة التي كان يكنها الشيخ له، وكثرة تردده على الزاوية، بنى له الشيخ بيتاً خاصاً على سطح زاويته ليجمع فيه أغراضه ويتخذ مقره الخاص، وقد وقفنا على هذا البيت الذي يعرفه الجميع اليوم ببيت سيدي المختار السوسي⁽¹⁶⁾، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على العناية الكبيرة والرعاية الخاصة اللتين كان يوليها الشيخ سيدي إبراهيم البصير للعلامة محمد المختار السوسي؛ حيث كان يحبه كثيراً ويرفع من ضبعه من صغره، ولذلك غالباً ما كان يحثه على استتمام الأخذ والعلم⁽¹⁷⁾.

(12) المصدر نفسه، ج 12، ص 156.

(13) ولد محمد المختار السوسي سنة 1319هـ/1901م، وتوفي والده عام 1328هـ/1910م.

(14) تسمى الزاوية العليا، بناها الشيخ سنة 1332هـ/1912م في أعلى الجبل بعدما أهداه أيت بوجمعة من فخذ أيت واو بقعة لذلك. عن هذه الزاوية وظروف تأسيسها راجع:

- الجليلي كريم، زاوية آل البصير بتادلة، م س، ص 84 - 89.

وقد كان محمد المختار السوسي يزور الشيخ سيدي إبراهيم البصير في هذه الزاوية، ومن أهم هذه الزيارات تلك التي قام بها سنة 1337هـ/1917م، وصادف بها ما يقارب الألف فقير من طوائف كل الجهات. راجع:

- محمد المختار السوسي، المعسول، م س، ج 12، ص 146.

(15) هي الزاوية الحالية لآل البصير ببني عياط، أسسها الشيخ إبراهيم البصير عام 1339هـ/1919م، وهي ما تزال عامرة إلى اليوم وتمارس كافة الشعائر والطقوس الصوفية تحت مشيخة مولاي إسماعيل بن محمد المصطفى بصير حفيد الشيخ إبراهيم البصير. للمزيد من الأخبار عن هذه الزاوية وأنشطتها وخلفائها، راجع:

- الجليلي كريم، زاوية آل البصير بتادلة، م س، ص 90 - 227.

- عبد الهادي بصير، زاوية الشيخ سيدي إبراهيم البصير ببني عياط: تاريخ وتعريف، م س، ص 87 - 106.

(16) انظر صورته في الملحق رقم 02.

(17) محمد المختار السوسي، المعسول، م س، ج 12، ص 156.

3. الرحلة الفاسية أولى بواكير هذه العلاقة

كانت فاس وقتذاك هي قبلة الطلبة ومشرق العلوم بالمغرب، وبسبب مكانتها هذه؛ أمر الشيخ سيدي إبراهيم البصير تلميذه المختار السوسي بالذهاب إليها؛ لكنه تذرّع إليه بقلة ذات اليد وعدم قدرته على مجابهة الأمرين البعد والفقر، وفي هذا الصدد، ذكر المختار السوسي أن شيخه قال له: «[...] توجه إلى فاس، فإن توقف الحال على بيع هذه البغلة التي تحتي فإنها ستباع»⁽¹⁸⁾. وهذا ما أكدّه مؤلف الاغتراب أيضاً؛ حيث ذكر أنه سمع مباشرة من هذا العلامة قوله: «وصلت على والدك الشيخ (سيدي إبراهيم البصير) صحبة الفقير المحب المخلص سيدي أبي بكر بن عمر (امشيثة الجنة) كما يسميه الشيخ سيدي علي بن أحمد، وكانت نهمتي في طلب العلم شديدة ورغبتني فيه أكيدة، ولكن نظراً لما عليه الحالة المادية، وبعد أهلي بسوس كنت أرى ذلك يكاد يكون صعباً، ففرح بي كثيراً، وقال لي رحمة الله عليه: يا ولدي كل ما في الزاوية فهو لك، ولا تهتم إلا بتحصيل العلم، وإن احتاج الحال إلى هذه البغلة التي أنا عليها -وكنّا نسير إلى زيارة إخوان في الله من أتباعه- فإنها تباع ويصلك ثمنها»⁽¹⁹⁾.

وبالجملة، فقد ظل شيخه هذا يلح عليه حتى أذعن له، فجمع متاعه، وجهزه الشيخ بما يحتاجه من مؤونة ونقود، وأرسل معه بعض فقراء الزاوية إلى فاس⁽²⁰⁾؛ بل إن شيخه لم يقف عند هذا الحد، وإنما عيّن "فقيرين" من الزاوية لخدمته، وهما الفقير أحمد بن حمادي العلوي الناصري، والفقير الصغير بن بوزكري الركيعي، فكان هذان الفقيران هما الواسطة بينهما؛ حيث كانا يتوجهان -بأمر شيخهما- مرة في الشهر من الزاوية نحو فاس مشياً على الأقدام، للاطلاع على أحوال محمد المختار السوسي وحمل الزاد إليه من غذاء ومال. وهذا ما أكدّه صاحب الاغتراب قائلاً: «[...] وذكر لي الفقيران سيدي أحمد بن حمادي العلوي، والفقير سيدي الصغير بن بوزكري الركيعي: كنّا نرتاد فاس مشياً على الأقدام ذهاباً وإياباً مرة في كل شهر، نحمل الزاد للفقير سيدي محمد المختار حتى تخرج منها وأصبح من العلماء»⁽²¹⁾.

(18) المصدر والصفحة نفسهما.

(19) محمد المصطفى بصير، الاغتراب ...، م س، ص 382 - 383. وللإشارة فهذا المؤلف هو ابن الشيخ سيدي إبراهيم البصير، وخليفته الثالث على رأس زاويته، ولد سنة 1940م/1360هـ، وتوفي سنة 2006م/1426هـ.

(20) أخبرني بذلك الشيخ محمد المصطفى بصير رحمه الله في لقاء معه بالزاوية البصيرية ببني عياط يوم 2005/07/26، وأكد أن محمد المختار السوسي كان دائم الزيارة لوالده بالزاوية، وأنه التقى به هناك عدة مرات.

(21) محمد المصطفى بصير، الاغتراب ...، م س، ص 384. أقول: لقد أكد لي مؤلف الاغتراب ذلك بنفسه، وأخبرني أنه سمع ذلك تحقيقاً من غير واحد من فقراء الزاوية لاسيما من الفقيرين المذكورين. (في لقاء معه بزاوية والده ببني عياط يوم 2005/07/23).

وإذا كان جل الباحثين والدارسين قد أغفلوا أو جهلوا أو تجاهلوا أهمية وجود الشيخ سيدي إبراهيم البصير في حياة العلامة السوسي، ودوره القوي في توجيهه وتكوينه؛ فإن المختار السوسي نفسه قد أقر بأن هذا الشيخ هو من أوحى إليه بفكرة التوجه إلى فاس رغم أنه لم يذكر تفاصيل ذلك⁽²²⁾؛ بل إننا وجدنا في أرشيف التقارير الاستعمارية الفرنسية ما يؤكد ذلك، ويثبت أن هذا الشيخ كان على صلة وثيقة به، وهو من مؤل دراسته اعترافا بالجميل لشيخه الحاج علي الإلغي السوسي⁽²³⁾.

4. الانتقال إلى الرباط ثاني ثمرات هذه العلاقة

ظل محمد المختار السوسي أربع سنوات بفاس ينهل من علومها، «...» وفيها استبدل فكريا بفكر فتكون له مبدأ عصري على آخر طراز [...] وصاحب كل المفكرين إذ ذاك⁽²⁴⁾، ثم تشوف إلى لقاء علماء الرباط لاسيما الشيخ شعيب الدكالي الذي كان صيته يضرب الآفاق، وكان قد جلس أمامه أثناء زيارته لمراكش؛ لكنه لم يجد إلى ذلك سبيلا إلى أن جاءت زيارة الشيخ الدكالي لمنطقة تادلة، فانتهازها إبراهيم البصير فرصة والتقى به، وكان المختار السوسي وقتذاك ما يزال يدرس بفاس، وجاء لزيارته بزوايته، فقرب الشيخ سيدي إبراهيم من الشيخ شعيب وبين له ما يستحق من تقدير واحترام، ثم قدم له هدية تتمثل في ناقة بيضاء⁽²⁵⁾، وبعدها قدم له المختار السوسي قائلا: «...» يا سيدي إن هذا سيدي محمد المختار ابن شيخي علي بن أحمد الدرقاوي، أرجوك أن تعامله مثلما تعامل السلحفاة أبناءها، فقال الشيخ شعيب: وكيف تعامل السلحفاة أبناءها؟ فقال الشيخ: كما تعلم يا سيدي أن السلحفاة ليس لها ثدي ترضع به صغارها، وإنما تقابل البيض متى فقس ويخرجون هزالا ضعافا فتنظر إليهم نظرة عطف وإشفاق، فينتعشون بين يديها من ساعتهم يسعون في الأرض على الرزق⁽²⁶⁾.

(22) محمد المختار السوسي، المعسول، م س، ج 12، ص 156.

(23) جاء في التقارير الاستعمارية الفرنسية أن سيدي الحاج إبراهيم استقبل الزعيم القومي المختار السوسي مدة خمسة عشر يوما أواخر يناير 1944م، كما أشارت إلى أن الحاج عليا والد المختار السوسي كان هو شيخ سيدي إبراهيم، واعترافا من هذا الأخير بالجميل مؤل دراسة ابن شيخه، وبقي على صلة به. (انظر الملحق رقم 03).

(24) محمد المختار السوسي، الإلغيات، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1963، ج 2، ص 226.

(25) ذكر صاحب الالغيات أن الشيخ سيدي إبراهيم البصير قدم للشيخ الدكالي تلك الناقة وقال له: «يا سيدي إن الناس هنا يهدون لك السيارات الفخمة، وهذا الفقير أعز ما لديه هذه الناقة، فهي هدية لله وللعلم الشريف، فقال الشيخ شعيب: والله يا سيدي ما تلقيت هدية أكرم ولا أحسن من هذه». محمد المصطفى بصير، الالغيات...،

م س، ص 375.

(26) المصدر نفسه، ص 375-374.

فالملاحظ إذن، أنه كما كان للشيخ سيدي إبراهيم البصير الفضل في ذهاب المختار السوسي إلى فاس، فإنه هو أيضا من مهد له الطريق نحو الرباط التي التحق بها مفتتح 1347هـ/1928م؛ بل تحكي الروايات أنه ظل يساعده ماديا ومعنويا كما كان في فاس حتى أتم سنته الدراسية تلك.

5. اعتراض وتوجيه وهدية

بعد انصرام السنة التي قضاهما الشاب السوسي في الرباط، عزم على السفر إلى مصر أواخر سنة 1347هـ/1929م للاستزادة من العلوم، فجاء لاستشارة شيخه سيدي إبراهيم البصير في الأمر، فلم يوافق على سفره⁽²⁷⁾، فاستشاره في وظيفة حكومية عُرضت عليه فلم يوافق عليها أيضا، وأشار عليه بأن يعود إلى مراكش لنشر ما تعلم قائلا له: «أذهب إلى مراكش لتعليم أبناء المسلمين ما هم في حاجة إليه، وسيأتي زمان يبحثون هم عنك، لا تبحث أنت عليهم»⁽²⁸⁾، فنزل عند رغبته، وعاد إلى الحمراء لينكب على التدريس متخذًا من الزاوية الدراقاوية بحي الرملة بباب دكالة مستقره الخاص، ومحل إلقاء الدروس وتنظيم الحلقات العلمية.

دأب الباحثون والدارسون على نسبة زاوية الرملة بمراكش إلى الشيخ محمد المختار السوسي؛ بل إنها لا تُعرف اليوم إلا بـ «زاوية المختار السوسي»؛ لكن الحقيقة، أن هذه الزاوية لم تكن في الأصل سوى زاوية للشيخ المذكور سيدي إبراهيم البصير بناها "الفقراء" الدراقاويين ذوي الطريقة الإلغية بعدما مُنعوا من دخول زاوية القصور الدراقاوية⁽²⁹⁾، حيث بحث عن مكان ليتخذ زاوية للفقراء الذين كانوا يرافقونه؛ فأهداه

(27) أخبرني شيخ زاوية آل البصير ببني عياط السيد محمد المصطفى بصير (رحمه الله) أن المختار السوسي هو الذي حكى له هذه الحكاية بنفسه أثناء وجودهما بالزاوية بعد مرور مدة طويلة على حدوثها، وأكد له أن الشيخ إبراهيم البصير برر له عدم موافقته على السفر إلى مصر بكونه لا يستطيع تأمين مصاريفه؛ نظرا للبعد والظروف الحرجة التي تمر منها الزاوية؛ بسبب تسلط الاستعمار وتوالي السنوات العجاف. (في لقاء معه بالزاوية المذكورة يوم 23/07/2005). أقول: إن المختار السوسي صرح بأنه كان قد عقد العزم على الذهاب إلى مصر، وأنه تراجع عن ذلك بسبب قلة ذات اليد، حيث قال: [...] وقد كنت عزمت على اللجوء بمصر آخر عام 1347هـ، غير أنني أخاف أن ينضب ما عندي وليس ورائي من يمدني، فأبقى هناك محتاجا. وإن أعظم ما أتيقن أن أحتاج إلى الناس». محمد المختار السوسي، الإلغيات، م س، ج 2، ص 229. وكما يبدو؛ فهناك تقارب كبير بين الروايتين.

(28) محمد المصطفى بصير، الاغتياب...، م س، ص 384.

(29) كان الشيخ إبراهيم البصير كثير السياحة، وفي إحدى سياحاته دخل مراكش رفقة عدد من الفقراء الدراقاويين، فقصصوا الزاوية الدراقاوية في حومة القصور؛ لكن مقدمها أخرجهم منها مرغمين، فأخبر إبراهيم البصير شيخه الإلغبي بما وقع لهم بهذه الزاوية، واستشاره في بناء زاوية خاصة به، فقال له: «ابنوا لكم محلكم لا يشارككم فيه أحد». محمد المختار السوسي، المعسول، م س، ج 12، ص 133. فكان هذا الحادث -كما قال إبراهيم البصير-: «هو السبب حتى فكرنا في بناء زاوية لنا على حدة». المصدر والصفحة نفسهما. وراجع أيضا: محمد المصطفى بصير، الاغتياب...، م س، ص 111. وقد أكد المختار السوسي في موضع آخر أن هذه الزاوية بنيت فعلا على يد إبراهيم بن مبارك البصير. راجع: محمد المختار السوسي، المعسول، م س، ج 15، ص 38.

أحد أبناء عمومته دارا كبيرة ومتسعة ليتخذها زاوية له، لكنه رفض الهدية بعد أن تبين له أن الدار مشتراة بمال منهوب⁽³⁰⁾، وظل يبحث عن مكان لبناء الزاوية؛ حتى وجده قبالة مسجد باب دكالة من الناحية الجنوبية في المكان الذي يسمى الرملة⁽³¹⁾، فاشتراه عام 1327هـ/1909م بثلاثمائة ريال، ثم كتب إلى شيخه الإلغي يعلمه بذلك⁽³²⁾.

ولم يكتف الشيخ سيدي إبراهيم بشراء بقعة تلك الزاوية؛ بل أشرف بنفسه على بنائها، وأفق في ذلك كل ماله؛ حتى إنه باع بغلته التي كان يركبها من أجل إتمام البناء⁽³³⁾، وظل مسؤولا عنها، ومكلفا بمؤونتها وحاجياتها، وبكل ما يتعلق بها، والنفقة على من فيها⁽³⁴⁾، ثم أهداها لشيخه سيدي الحاج علي الإلغي في أواخر أيام هذا الأخير سنة 1328هـ/1910م. وبقيت كذلك إلى أن جلس فيها العلامة محمد المختار السوسي للتدريس والتعليم بأمر من شيخه سيدي إبراهيم البصير، فنسبت إليه لكثرة مكوثه وتدريسه بها⁽³⁵⁾.

6. نضج علمي ومشاركة في التعليم والتربية

كان محمد المختار السوسي أثناء مقامه بمراكش يتردد كثيرا على زاوية الشيخ سيدي إبراهيم بنيني عياط بتادلة؛ بل أصبح أكثر التصاقا بها، وزادت مكانته في الزاوية بسبب

(30) هذا الشخص هو محمد بن إبراهيم ولد الهرم الرقيبي الساعدي أحد أعيان الرحامنة، كان يقطن مراكش، أهدى تلك الدار للشيخ سيدي إبراهيم البصير لكونه من أبناء عمومته الرقيبات؛ لكن لما عزم على اتخاذها زاوية استدعى شيخه الإلغي ليرأها، فما كاد يصل إلى فائها حتى قال له: «فش على غيرها»، ثم تبين فيما بعد أن هذا الرحماني الذي وهبه هذه الدار؛ إنما اشتراها بمال كان انتهبه من معسكر السلطان المولى عبد العزيز حين انتهبه الرحمانيون. محمد المصطفى بصير، الاغتباط...، م س، ص 111. وراجع أيضا: محمد المختار السوسي، المعسول، م س، ج 12، ص 133.

(31) للمزيد من تفاصيل وظروف بناء هذه الزاوية، راجع:

- الجيلالي كريم، زاوية آل البصير بتادلة، م س، ص 67 - 69.

- محمد المختار السوسي، المعسول، م س، ج 12، ص 133 - 134.

- محمد المصطفى بصير، الاغتباط...، م س، ص 112 - 116.

(32) اشترى سيدي إبراهيم البصير هذه البقعة من ماله الخاص بمعية بعض الفقراء الذين كانوا معه، وسجلها باسمه في السجلات العدلية التوثيقية الرسمية. (أخبرني شيخ الزاوية البصيرية الحالي مولاي إسماعيل بصير أن الزاوية ما زالت تحتفظ بنسخة من عقد البيع الأصلي). ولما راسل شيخه الإلغي ليعلمه بشرائها؛ أجابه برسالة مطولة يثني عليه فيها، ويحث الفقراء على مساعدته في بنائها ماديا ومعنويا. (انظر النص الأصلي للرسالة في الملحق رقم 04).

(33) محمد المختار السوسي، المعسول، م س، ج 12، ص 134.

(34) ذكر صاحب الاغتباط أن الشيخ الإلغي زار سيدي إبراهيم البصير مرة في زاوية الرملة بمراكش رفقة عدد كبير من الفقراء، فأفق عليهم كل ما عنده، فلما نفذ ما عنده باع مركوبه وثيابه، فلم يكف ذلك فاقترض من أبناء عمومته خدمة لشيخه وللفقراء. راجع: محمد المصطفى بصير، الاغتباط...، م س، ص 142 - 143.

(35) لم ينس سيدي إبراهيم البصير هذه الزاوية حتى بعد أن جلس فيها العلامة محمد المختار السوسي، وإنما ظل حريصا على رعايتها وصيانتها، وقد وقفنا على بعض الوثائق التي تثبت أنه كان يساهم في إصلاحها، وأنه كان يتعهدا باستمرار. انظر نموذجا من هذه الوثائق في الملحق رقم 06.

ما حصله من العلوم ، فأصبح «يتربى ويربى بين أحضان الشيخ»⁽³⁶⁾ ، ولازم شيخه في العديد من سياحاته؛ حتى إنه كان يخصص له خيمة خاصة⁽³⁷⁾ ، ويقدمه للصلاة رغم صغر سنه⁽³⁸⁾ ، ويستشيريه في كافة الأمور ، ويستعين به في كتابة المراسلات وفي جل مدوناته⁽³⁹⁾ ؛ فكان ذلك مزيدا من التربية والتكوين له ، واعترافا وردًا للجميل للشيخ الإلغي في شخص ابنه الذي كان لسان حاله يقول لأبناء الشيخ سيدي إبراهيم البصير بعد وفاة هذا الأخير: «إن والدكم كان يربح من الناس ، وما ربح منه أحد سواي»⁽⁴⁰⁾ .

7. اعتراف بالجميل

لم ينس المختار السوسي فضل هذا الشيخ رغم ما وصله من درجات العلم ومن مكانة اجتماعية؛ وإنما ظل يزوره ويحترمه ويعظمه ، ويظهر ذلك من خلال قوله: «[...] ثم لما أبت إلى التعقل ، وعرفت مكانة الرجل (سيدي إبراهيم البصير) صرت أعطيه حقه كما ينبغي ، وفي المرة الأخيرة التي زرت فيها قبل وفاته بقليل ، حمدت الله على أن رأى مني من الإجلال ما هو أهله»⁽⁴¹⁾ ؛ بل إن تقديره لهذا الشيخ جعله يقدم له جميع مؤلفاته وكل ما يملك⁽⁴²⁾ ، وكتعبير عن المحبة البالغة من الشيخ لتلميذه احتفظ بكل ذلك كأمانة عنده ، ثم أوصى أن يُردَّ له بعد موته⁽⁴³⁾ ، فذكرنا هذا الفعل بينهما بتلك المؤاخاة

(36) محمد المصطفى بصير ، الاغتباط ... ، م س ، ص 382 . وقد ساق مؤلف الاغتباط عدة حكايات في هذا الباب ، منها أن المختار السوسي «كان يشبغ (يضرب) الفقراء والطلبة المتخلفين من هؤلاء والمخالفين من أولئك بين يديه (إبراهيم البصير) ، ولا يستطيع أن يقول له الشيخ شيئا» . المصدر نفسه ، ص 383 . ومنها ما رواه أيضا عن بعض فقراء الزاوية أنهم «[...] ذهبوا مرة إلى ناحية أولاد عبد الله لتنف شعير الزاوية ، ولقصير لا تصلح له المناجل ، ولما انتهوا أخذوا الحناء وطلوا بها أيديهم لما أصابها من الجروح والقروح ، ولما جاؤوا مسلمين على الشيخ وجدوا الفقيه سيدي محمد المختار جالسا معه ، وكلما سلم عليه فقير منهم وبهده الحناء أجلسه حتى اجتمع بين يده عدد منهم ، فطلب حبلا ليشبغهم به ، قائلا لهم: أنتم رجال أم نساء حتى تضعوا الحناء في أيديكم ، والشيخ ساكت حتى انتهى من تعنيفهم لهم ، ثم أحنى عليه الشيخ سارا له في أذنه: إنهم يا سيدي متداون بها من تنف الشعير للفقراء ، فراجع قائلا: لا بأس بالتداوي بالحناء» . المصدر نفسه ، ص 384-383 .

(37) المصدر نفسه ، ص 315 .

(38) أشار صاحب الاغتباط إلى أن الشيخ سيدي إبراهيم البصير كان يقدم تلميذه السوسي نظرا لما تفرسه فيه من الحذق في فن الفقه وفروعه ، ولما رآه عليه من الاستقامة التي وهبه الله ، والجد الصارم في الإقبال على الله . المصدر نفسه ، ص 383 .

(39) وقفنا على عدد من الوثائق المخطوطة بزاوية آل البصير بتادلة التي كتبها العلامة محمد المختار السوسي بخط يده زمن شيخه سيدي إبراهيم البصير . انظر نموذجا من هذه الرسائل بالملحق رقم 06 .

(40) محمد المصطفى بصير ، الاغتباط ... ، م س ، ص 385 . ويبدو أن المختار السوسي كان يستلهم هذه العبارة من كلام الشيخ سيدي أحمد بن مسعود المعدري الذي كان يرددها باستمرار في حق الشيخ إبراهيم البصير . راجع: محمد المختار السوسي ، المعسول ، م س ، ج 12 ، ص 152 .

(41) محمد المختار السوسي ، المعسول ، م س ، ج 12 ، ص 156 .

(42) المصدر نفسه ، ج 12 ، ص 156 .

(43) المصدر والصفحة نفسها .

العجيبة التي حدثت زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع؛ حيث أثر كل منهما صاحبه على نفسه⁽⁴⁴⁾.

وإذا كان للشيخ إبراهيم البصير كل هذه الأيادي البيضاء على العلامة محمد المختار السوسي، فلا استغراب إذا اعتبره هذا الأخير شيخه في الأوراد والأذكار⁽⁴⁵⁾، ولا استغراب إذا اتخذه شيخاً من شيوخه المعتمدين في طريق القوم⁽⁴⁶⁾؛ لكن الاستغراب يبقى في هذا الطمس المهول لهذه الحقائق التاريخية، وفي هذا السكوت المطبق للدارسين والباحثين عن علاقة هذين الشيخين، الأمر الذي يطرح أكثر من علامة استفهام.

ومهما يكن؛ فقد حاولنا أن ننفذ الغبار عن هذه العلاقة، وأن نستجلي مضمراتها؛ عسى أن نكون قد استجبنا لما يفرضه علينا البحث العلمي من موضوعية، دون الانطلاق من خلفية معينة، أو روم تحقيق مقصدية محددة، وإنما فعلنا ذلك لله ثم للتاريخ، وحسبنا أننا سعينا، وأن ليس للمرء إلا ما سعى.

(44) وردت قصة هذه المؤاخاة في جل كتب السيرة والحديث، راجعها مثلاً عند: أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ، ج 3، ص 52، 53/ ج 5، ص 31، 69/ ج 7، ص 4، 24.

(45) محمد المختار السوسي، المعسول، م س، ج 15، ص 162.

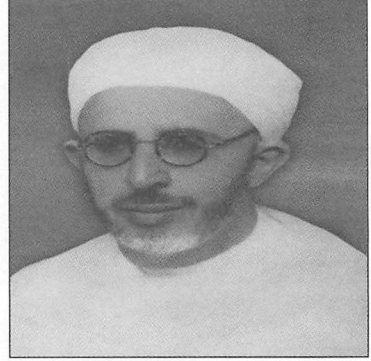
(46) المصدر نفسه، ج 12، ص 156.

الملاحق

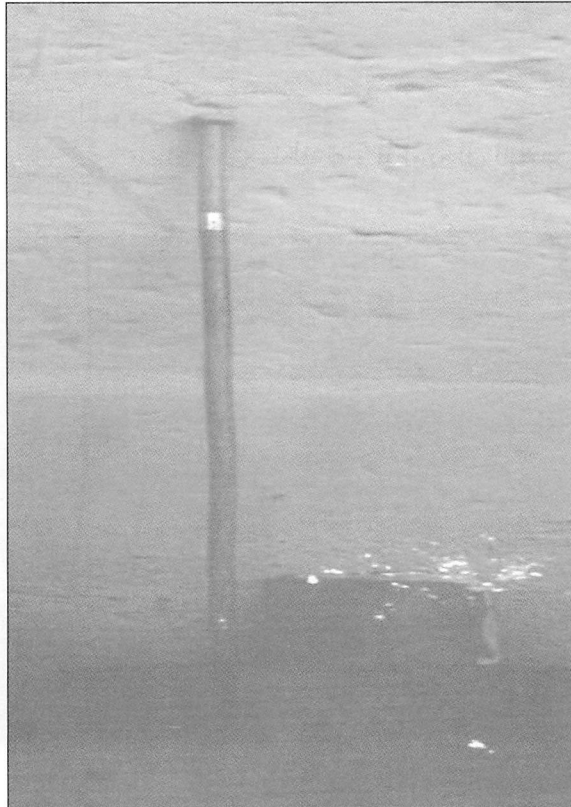
الملحق رقم 01



الشيخ سيدي إبراهيم البصير الرقيبي

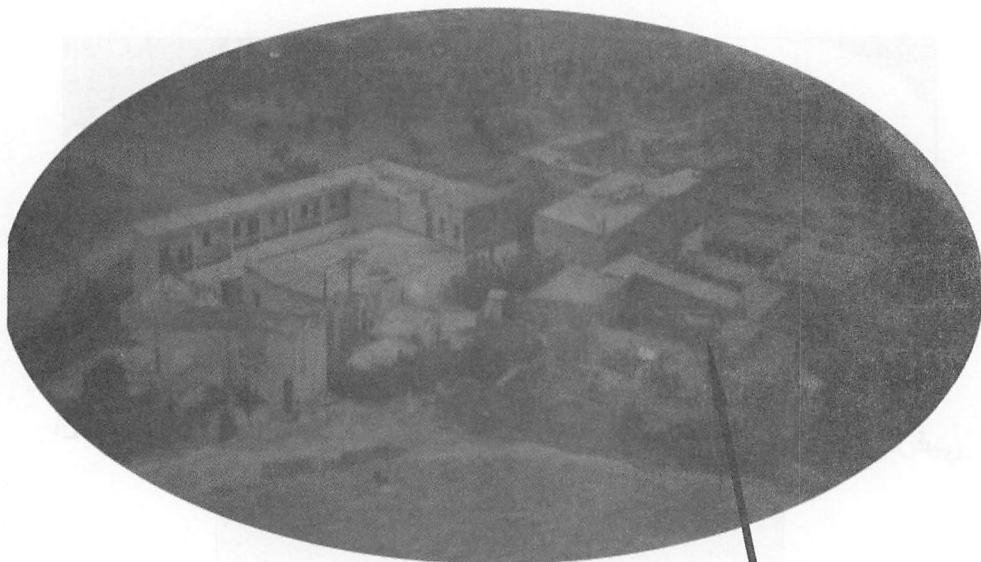


العلامة محمد المختار السوسي



عكازة الشيخ الإلغي وكتاب الأمير اللذان أوصى بهما للشيخ سيدي إبراهيم البصير

الملحق رقم 02



بيت العلامة المختار السوسي

منظر عام لزاوية آل البصير ببني عياض



الملحق رقم 05



وثيقة تبين مساهمة الشيخ سيدي إبراهيم البصير الرقيبي في إصلاح زاوية الرميلا
المنسوبة إلى العلامة محمد المختار السوسي بباب دكالة بمراكش

الأدب ليس الملقى من عند الوحيين هو الأبراهيمي
محيط القصص. الجليل العالم هو محمد المختار السوسي

Published by Arab Journals Platform, 2013